٣٩

مدرسة دار الحكمة للعلوم الإسلامية

مركز مدار للتنمية والدراسات الإسلامية

محاضرة مكتوبة

فطرة حب النفس والميزان الشرعي

سماحة السيد
عبد الحسين القاضي

-٢٠٢٣-

فطرة حب النفس والميزان الشرعي

مقدمة المركز:

هذا تقرير لمضامين محاضرة سماحة السيد عبد الحسين القاضي في مركز مَدرك للتنمية والدراسات الإسلامية التابع لمؤسسة دار الحكمة في النجف الأشرف، ضمن ملتقى الثلاثاء الفكري بحضور طلبة العلوم الدينية، بعنوان «فطرة حب النفس والميزان الشرعي» تناول فيها موضوع حب الإنسان لذاته بوصفه فطرة إلهية، مبيناً كيف يكون هذا الحب أساس الإيمان والطاعة حين يُضبط بالميزان الشرعي، وفي الوقت نفسه قد يتحول إلى فتنة توقع الإنسان في الكبر والاعتداد بالنفس إذا تُرك بلا ضوابط، كما سلط الضوء على دور هذه الفطرة في حياة طلبة العلم، وما تثيره من ابتلاءات علمية وأخلاقية، مثل صعوبة الاعتراف بالخطأ، أو الوقوع في الغرور والحسد، مؤكداً ضرورة تهذيب النفس وتربيتها على التواضع ومحاسبة الذات.

فطرة حب النفس والميزان الشرعي

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطاهرين. ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

أولا: حب الإنسان لنفسه محرك لإيمانه بالرسل:

خلق الله سبحانه وتعالى هذا الإنسان مفطوراً على حب ذاته ونفسه، فيسعى إلى جلب الخير لها بكل ما أوتي من قوة، وصرف الشر عنها بكل ما أوتي، وهذه الجبلة أو هذه الفطرة الإلهية في الإنسان من الحكم التي اقتضت إرسال الأنبياء والرسل إلى البشرية؛ إذ كان محور هذا الإرسال هو هذه الفطرة السليمة، فطرة الإنسان لحب نفسه؛ لأنها تحرك فيه الوازع، وازع الخوف من الله سبحانه تعالى أو الخوف من المجهول الذي يُسمى دفع الضرر المحتمل، ووازع الثواب والرجاء المترتب على إجابة الدعوة الذي هو جلب المصالح للإنسان؛ فكان من جملة الأسباب لإيمان الإنسان بالله سبحانه وتعالى وبرسله والأنبياء هو خوف الضرر ودفع الإنسان عن نفسه، وتحريك العقل بهذا الاتجاه.

وبعبارة أخرى: إنَّ عقل الإنسان يتحرك باتجاه أنه في خطر، ويحتمل أن يكون هناك ضرر على النفس، وبما أنه يحتمل أن يكون هناك ضرر، فأنت يجب عليك أن تؤمن بالدعوة حفاظاً على نفسك من الضرر، فلولا أن هذا الوازع الفطري الموجود في الإنسان في حب نفسه ودفع الضرر عنها، لما كان هناك وجه لقبول الإنسان لمثل هذه الدعوات السماوية.

فإن محور الدعوات السماوية هي حركة الإنسان نحو الاستجابة، وحركته نحو الاستجابة متوقفة على إدراكه وعلى شعوره بالخطر، وشعوره بالخطر يبتني على حبه لنفسه ودفعه للضرر عنها وجلبه المصلحة إليها، أما إذا كان الإنسان غير مُحب لنفسه فلا يبالي، ولا كان هناك إمكان أن يؤمن بالدعوات الإلهية التي جاءته؛ لأنَّ إيمانه بالدعوة الإلهية مرة ينشأ من الفطرة السليمة، أعني فطرة الإنسان على الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وأخرى ينشأ من دعوة الأنبياء والخوف من الضرر الذي ذكرناه ويذكره المتكلمون.

إن المحرك إلى الطاعة والامتثال أيضاً هو الخوف على النفس أن تتعرض للمهالك والضرر الأخروي أو الدنيوي... وهذا هو نابع من حب الإنسان لنفسه، نابع من خوف الإنسان على نفسه من الوقوع في الضرر، معنى ذلك أن القضية دائرة كلها مدار حب الإنسان لنفسه.

ثانيا: حب النفس محور الحياة العملية للإنسان:

مدار حركات الإنسان في حياته اليومية قائم على جلب الخير والكمال لنفسه وصرف السوء عنها، وعلى هذين الأمرين مدار ارتباطاته اليومية، فإذا كان الشخص محباً لنفسه، فحينئذ يرجو لها كل خير ويدفع عنها كل شر، ويرجو لها الكمال ويدفع عنها النقص، ثم تتشعب هذه المحبة إلى محبات أخرى، مثل محبة الوالد لولده بعد شعوره بأنها كمال له، ففي الحقيقة هي محبته لنفسه وليست محبته لولده خالصة، وكذلك محبة الولد لأبيه لما يشعر أنه كمال له، فترجع محبته لأبيه إلى محبة لنفسه، وهكذا في كل وضع اجتماعي يومي.

إذا لاحظ الإنسان هذا المعنى واستوعبه، وأن القضية كلها ترتبط بمصلحته الشخصية، وبحبه لنفسه، فعليه أن يلتفت إلى هذه الفطرة؛ فهي فطرة الله سبحانه

وتعالى التي قادته للطاعة وللإيمان بالله، وإذا لم تكن هناك محبة للنفس يكون الإيمان بالله ناقصـــا، وإذا فقد الإنســـان الحب لنفســـه، فما الذي يحركه بعد باتجاه الطاعة لله سبحانه وتعالى؟

هذا هو البشر الطبيعي، نعم ما ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه: "وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك"[1] فهذه حالة خاصـة، هذه حالة غير موجودة عند سـائر البشر؛ فإن المتعارف أن يخاف الإنســان على نفســه فيتحرك، فربما كان المحرك لبعض الأشــخاص خوف العقاب، لا يحركهم كثيراً رجاء الثواب، بأن تجعل عقاباً على عصيان الأوامر وعصيان النواهي، فيتحرك خوفاً من العقاب، وبعض الأشــخاص قد يحركهم رجاء الثواب، فيكون الطمع بالثواب محركاً لهم، لكن الذي يجمع الطائفتين هو حبهم لأنفســهم ومحاولتهم جر النفع لها ودفع الضرر عنها.

ثالثا: الحاجة إلى ضبط حب النفس بالميزان الشرعي:

تبين ما لهذه الفطرة من الأهمية، في الوقت نفســه ينبغي أن يلتفت الإنســان إلى أنها أيضـاً فتنة من فتن الدنيا، ينبغي على الإنسـان أن يضـع لها قاعدة شرعية تضـبطها، وإلا كثيراً ما يتعرض الإنسان في حياته اليومية للمزاحِمات بين رغباته النفسية ورغبات الآخرين، فما موقفه في ذلك الوقت؟ فإذا قدَّم رغبته وفق الموازين الشرــعية فمعناه أنَّه مراقب لنفسه، أما إذا قدم رغبته على خلاف مقتضى الموازين الشرعية فستكون حبه لنفسه وبالاً عليه؛ لأنه قد أوقعه في فتنة.

[1] - بحار الأنوار: ج١٢/ ص٣٨٠.

الصحيح أن يضع الإنسان نفسه ضمن الميزان الشرعي، ولا يُرسل لها العنان؛ لأنه كثيراً ما يتعرض لمثل هذه المزاحمات، كيف يكون العمل؟ هل يختار تقديم نفسه، أو تقديم غيره؟ إذا كان الإنسان على وفق الموازين الشرعية فإنه سيعمل بما تقتضيه، ولا يكون تقديمة لشيء إلا قربة إلى الله تعالى.

إن ابتلاء الإنسان بهذه الفطرة قد يوقعه في المخالفات ليس فقط مع أفراد مجتمعه ومن يرتبط به، بل مع الله سبحانه وتعالى؛ فإن الإنسان الذي عنده رغبات وهو يحب نفسه ليس مستعداً لأن يتنازل ويعترف بخطئه إذا كان مخطئا؛ لأنه يرى أن هذا نوع من أنواع التوهين لنفسه، لولا هذا الاعتزاز لكان لا مانع عنده أن يعتذر أو يعترف بالخطأ، ولكن يرى نفسه عزيزة عليه، صعب عليه أن ينحني معتذراً؛ فيحاول أن يبرر الخطأ بشتى الوسائل في سبيل أن يحافظ على كيانه، في سبيل أن يحافظ على نفسه، وأن لا يعترف أنه قد وقع في الخطأ، فيظل يحاول يدافع عن الخطأ الذي وقع فيه ويضيع الحقيقة، والنتيجة التي تترتب على هذا: ضياع الحقيقة؛ لأن الدفاع عن الموقف الخطأ في الحقيقة ضياع للحقيقة، فهو مستعد لأن يضيع الحقيقة وأن يعتدي على الآخرين في سبيل أن يحافظ على نفسه، ولا يقول: "أنا أخطأت" هذا على أي أساس يبتني؟ يبتني على أساس حبه لنفسه واعتزازه بنفسه، ويرى أن موقف الاعتذار والإقرار توهينا لنفسه، وليس مستعداً أن يُوهِن نفسه، فضلاً عن اعترافه بأنه أقل من فلان، من صديقه مثلاً، فنرى أن الإنسان بشكل عام عنده حالة من الغرور والاعتداد بنفسه، ومن جملة المهالك التي ينجر الإنسان بمقتضى. هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها التكبر والغرور، وأول من كفر بسبب التكبر هو إبليس عليه اللعنة.

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: "فإنما هي نفسي- أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر"[٢]، فإذا لم يلتفت الإنسان إلى جهة الموازنة الشرعية بين تفضيله لنفسه والحفاظ على نفسه وحقوق الآخرين سيقع في الفتنة، وإذا وقع في الفتنة لا تُبقي للإنسان باقية مع الآخرين من جهة، ومع نفسه من جهة أخرى. مع نفسه كيف؟ كما أشرنا إلى أن الإنسان كثيراً ما يتعرض لمواقف يخطئ بها، أنا اليوم أتكلم معكم بكلام ثم أرى أني أخطأت في موضوع أو في آية، أو في نقل رواية، أو في طرح مفهوم معين، فأجد نفسي- أنه ليس من السهل أن أقول: "أنا أخطأت يا إخوان" مع أن

علماءنا - علماء الطائفة - على مر العصور يعرض لهم تبدل الرأي والفتوى، بأن يكون الفقيه على رأي ثم يُبطِل ذاك الرأي وينتقل إلى رأي آخر، هذا على أي شيء يبتني؟ يبتني على معرفته بخطأ رأيه الأول؛ فلا ينبغي الإصرار على الخطأ؛ فالإنسان ليس معصوماً، وإصراره على الخطأ يجره إلى المهالك؛ لأنه مع ما فيه من التكبر، يكون ضياعاً للحقيقة.

رابعا: طالب العلم وحب النفس:

يبتلي بحب النفس الكثير من طلبة العلم على مختلف مستوياتهم، ومختلف صنوفهم وأشكالهم وألوانهم، فالإنسان مهما اختلف هو الإنسان بدوافعه وعواطفه ونوازعه النفسية نفسها، وحينما يكون في مقام العلم تبدأ الصراعات النفسية عنده؛ يريد أن يثبت أن رأيه هو الصحيح في باب المناقشات، وعندما تخرج عن كونها مناقشة علمية لإبداء الرأي وتدخل في عنوان آخر هو تبجيل الرأي وتعظيم الرأي، عندما يصل إلى هذا الحد تصير المناقشة مكروهة جداً؛ فتتحول إلى مراء لإثبات الرأي، وليس لإظهار الحقيقة

[٢] - شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد - ج ١٦ - الصفحة ٢٠٩

أو بيان الواقع، معنى ذلك يريد يثبت نفسه على الآخرين، يريد أن يثبت خصوصيته على الآخرين.

ما يتعرض له طالب العلم بحكم نشاطه العلمي - والعلم صفة حسنة للنفس وكمال لها - يجعله يأنف أن يقال له جاهل' فهو في نظر نفسه عالم بمختلف المستويات، في كل المراحل يعدُّ نفسه عالماً، من الصعب عليه أن يرى نفسه يقاس بفلان وفلان من الجهال، يحدِّث نفسه: "أنا عندي مستوى، أنا كذا في هذه المرحلة"، مثل هذا إذا أخطأ هل ترجو منه أن يأتي في اليوم التالي ويقول: "أنا أعتذر، تبينت هذه المسألة على خلاف ما ينبغي" أو لا يستطيع ذلك؟

إذا تعرض لمسألة في وضعه اليومي، سواء في البيت أو في الشارع أو في المؤسسات الأخرى وأجاب عن المسألة بمقتضى ما عنده من معلومات، ثم بمجرد ما ذهب السائل التفت إلى خطأ جوابه، فهل هو مستعد أن يلحقه ليخبره بخطئه؟ أم سيبرر لنفسه قائلاً: "إن شاء الله الجواب صحيح، المسألة تحتمل جوابي..." يحاول ألا يتنازل؛ لأنه يرى أن التنازل مهين بالنسبة إليه.

خامسا: التوازن في حب النفس:

المفروض على الإنسان أن يعكس الحالة، أن يربي نفسه على التوازن في المواقف الشرعية، نعم نفسه مهمة وعزيزة، وتوهينها ليس بصحيح، ولكن إذا اقتضت الموازين الشرعية أن يُوهِنها كي لا تجره بعد ذلك إلى المهالك؛ فيصح توهينها عند ذلك بل يحسن؛ فكم من شخص وقع في المهالك لأنه تعرض لموقف فبيّن فيه رأياً على خلاف مقتضى

الموازين، ثم يصعب عليه أن يتراجع، فيأخذ يهيئ أدلة وصورا استدلالية من أجل إثبات صحة رأيه حتى يشتهر الخطأ ويأخذ صداه، وأنتم تشاهدون هذه الحالة، ترون هذا الحال بشكل واضح وجلي في أوساط الحوزة العلمية.

طبعاً هذا الحال ليس في أوساط الحوزة بما هي حوزة، بل بما هي مؤسسة علمية؛ العلماء عندهم هذه الآفة، كما أن هناك آفات وفتن يتعرض لها غيرهم كالمال بالنسبة لصاحب المال صاحب المال، والجاه بالنسبة لصاحبه... كذلك العلم الذي هو سبيل المعرفة، معرفة الله سبحانه وتعالى، فيه فتنة وآفة لأهله؛ آفة العلماء الحسد، الحسد على أي أساس؟ ولماذا يتحاسدون؟ على أساس أن كلاً يريد أن يكون هو الأعلى، ولكنه يرى الآخر أعلى منه؛ فتبدأ المشاكل وتبدأ المشاحنات، هذا سبب الحسد، وهذه هي محورية الفتنة، أعني حب النفس، الغريزة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الإنسان لفتنته؛ فإنه قد خلق الدنيا للفتن، وليس لنا حق أن نقول له: يا ربنا، أنت أعطيتنا نفساً وألهمتنا حبها، لماذا أوقعتنا في هذه المشاكل؟ يقول: نعم، أنا أعطيتكم حتى أختبركم، مثلما أعطيتكم مالاً حتى أختبركم، أعطيتكم ولداً حتى أختبركم، كل جهة فيها جهة افتتان، كل خير يُعطى الإنسان فيه جهة افتتان {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}[٣] وذلك {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}[٤] فمن جملة الفتن التي يبتلي بها الإنسان ويقع فيها هي فتنة العلم، وأؤكد عليكم: العلم في جميع مراحله، أنت ترى الآن لا يوجد إنسان في مرحلة إلا ويوجد من هو دونه في تلك المرحلة، والسؤال هو كيف ينظر إلى من دونه؟ ينظر إليه على أساس أنه إنسان يعادله ويساويه، أم على أساس أنه أقل منه؟ بطبيعة الحال ينظر إليه على أساس أنه أدنى مرتبة منه.

[٣] - سورة الأنفال - الآية ٢٨
[٤] - سورة الأنفال – الآية٣٧

فعلى الإنسان أن يربي نفسه بحيث ينظر إلى غيره نظرة مساواة أو إكبار، كما ورد في نصوص كثيرة متضافرة، الإمام أمير المؤمنين (سلام الله عليه) مدحه أحد المادحين، وهو إمام معصوم مفترض الطاعة، لكنه لم يكن مريداً لهذا المدح؛ فالتفت لنفسه وقال: "أنا أعلم بنفسي- من غيري، والله سبحانه وتعالى أعلم بها مني. اللهم اجعلني كما يقولون واغفر لي ما لا يعلمون" [٥] فهل عنده ذنوب أو عنده مخالفات (حاشاه) حتى يكون بهذا التذلل الخضوع لله سبحانه وتعالى؟! ما تفسير ذلك؟ الجواب: لا ندري، نحن لا نفهم قوله: "واغفر لي ما لا يعلمون" فهل الامام قد فرض أن عنده ذنوباً يريد من الله أن يغفرها؟! هذا درس عملي في التواضع وتجنب النظرة الدونية للآخرين؛ لأنها في الحقيقة فتنة للإنسان وسبب مهالكه.

نحن بوصفنا طلبة علم نوصي أنفسنا ونوصي أبناءنا وإخواننا وأعزاءنا بتقوى الله سبحانه وتعالى والخوف من الله، والتأكيد على بعض المفاصل التي قد يغفل الإنسان عنها، منها أن نلتفت لوضع أنفسنا في الموضع الشرعي وألا نتعدى هذا الموازين الشرعية المعروفة، حتى إذا أخطأ أحدنا يعرف أنه أخطأ، ويعترف بخطئه، بعد ذلك كم نقدر أن نجاهد أنفسنا في هذا الاتجاه حتى لا توقعنا في المهالك؟

نعم ورد عندنا أن إذلال المؤمن لنفسه ليس صحيحاً، لا يجوز أن يذل نفسه، لكن يهذبها بينه وبين نفسه حتى تستقيم؛ فحينئذ يكون موقف الاعتذار سهلاً جداً أصلاً لا يجد فيه مشكلة؛ لأنه ربى نفسه في وقت سابق على الموازين الشرعية.

[٥] - نهج البلاغة: ٤٨٥.

أسأل الله سبحانه وتعالى التسديد في القول والعمل والتوفيق وحسن الخاتمة إن شـــاء الله، والســـير على منهج المتقين والمؤمنين من علمائنا الصـــالحين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

المحاضر السيد عبد الحسين القاضي